



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشَقَاقِ ۝٢﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي القرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10] أي تذكيركم أو ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم: هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص: 14] وقيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ ۝١٤﴾ [ص: 64] وهذا الثاني فيه بعد كبير. ﴿فِي عِزِّهِ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿وَشَقَاقِ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة.

﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصِ ۝٣﴾

﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً ﴿وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصِ﴾ ليس بحين نداء، ولا نزو ولا فرار.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي بشر مثلهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿أَجْعَلِ آلَآلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

﴿أَجْعَلِ آلَآلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا﴾ أي أزعِم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا ﴿أَجْعَلِ آلَآلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

﴿وَأَنطَلِقُ آلَآلًا مِنْهُمْ أَنْ أَسْأُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾

﴿وَأَنطَلِقُ آلَآلًا مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم ﴿أَنْ أَسْأُوا﴾ أي استمروا على دينكم ﴿وَأَصِيرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا

لَنُؤَيِّنَنَّ يَوْمَ يُرَادُّ قَالَ ابْن جَرِير: إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٍ يَرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ وَلَسْنَا نَجِيهَ إِلَيْهِ.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ (٧)

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ التَّوْحِيدِ ﴿فِي آلِ الْمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي النَّصْرَانِيَّةَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا لَأَخْبَرْتَنَا بِهِ النَّصَارَى ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ أَيِ تَغْرِصَ.

﴿أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ﴾ (٨)

﴿أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا: هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ فَعْلِهِمْ فِي اسْتِبْعَادِهِمْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَاقُوا إِلَى حِينٍ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ، عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَنَقْمَتَهُ، سَيَعْلَمُونَ غَبَّ مَا قَالُوا، وَمَا كَذَبُوا بِهِ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٩)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَبِينًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مَلِكَةِ الْفِعَالِ لَمَّا يَشَاءُ الَّذِي يُعْطِي مَا يَشَاءُ مِنْ يَشَاءَ، وَيَعْزُ مِنْ يَشَاءَ، وَيَذِلُّ مِنْ يَشَاءَ، وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءَ وَيَصِلُ مِنْ يَشَاءَ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٩) أَيِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَرَامُ جَنَابَهُ، الْوَهَّابِ الَّذِي يُعْطِي مَا يَرِيدُ لِمَنْ يَرِيدُ.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١٠)

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١٠) أَيِ إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْعَدُوا فِي الْأَسْبَابِ.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١)

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١) أَيِ هَؤُلَاءِ الْجُنْدِ الْمَكْذُبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشَفَاقٍ سَيَهْزَمُونَ وَيَغْلِبُونَ وَيَكْتَبُونَ كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمَكْذِبِينَ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَارِ﴾ (١٢)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنَّقِمَاتِ فِي مَخَالَفَةِ الرُّسُلِ، وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ﴾ (١٣)

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ﴾ أي كانوا أكثر منكم، وأشد قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ولهذا قال عز وجل:

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٥﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۝١٦﴾

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۝١٧﴾ أي ليس لها مثوية، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من السماوات والأرض إلا فرع إلا من استثنى الله عز وجل.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٨﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب، قال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير والشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد.

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٩﴾

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وقوله: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد، ولأيد القوة في العلم والعمل ﴿وَالْمَاءَ بَيْنَ يَدَيْهَا بِأَيْدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٢٠﴾ [الذاريات: 47] قال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر أنه كان يقوم ثلث الليل، وبصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وإنه كان أواباً» وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝٢١﴾

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝٢٢﴾ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْجُدُ لِلرَّبِّ رَبِّهِمْ وَالْطَّيْرُ ۝٢٣﴾ [سبا: 10] وكذلك كانت الجبال

تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيحه، إذا مر به الطير وهو سابح فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء، ويسبح معه، وتحببه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.

﴿وَالطَّيْرَ تَحْشُرُهُ كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ (١٩)

﴿وَالطَّيْرَ تَحْشُرُهُ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ أي مطيع.

﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (٢٠)

﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ أي وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ يعني الفهم والعقل والفتنة أو الحكمة النبوة ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ الشهود والإيمان، أو إصابة القضاء وفهم ذلك، أو «أما بعد».

﴿وَهَلْ أَنتَكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا

تَخَفْ خَصَمَانِ بَعْىَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (٢٢)

قد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنه كان في محرابه، وكان أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِيَ نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (٢٣)

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني يقال: عز يعز إذا قهر وغلب.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَى نِجَاحِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤)

﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي اختبرناه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ (٢٥)

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه: حسنات الأبرار سيئات المقربين. والجديد من مذهب الشافعي أن سجدة «ص» ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر، والدليل ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: السجدة في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي. وروى النسائي أن النبي ﷺ قال: «سجدها داود توبة، وسجدها شكراً» وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة، لتوبته وعدله التام

في ملكه، كما جاء في الصحيح «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا» وروى الإمام أحمد رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأشدّهم عذاباً إمام جائر».

﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦)

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد تواعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد. قال الوليد بن عبد الملك لأبي زرعة: أيحاسب الخليفة؟ فقال: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أم داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه فقال: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧)

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده، ثم يجمعهم يوم الجمع فيشيب المطيع، ويعذب الكافر ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين لا يرون عبثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٨)

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنما نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، وترى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى:

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾

أي ذور العقول، وهي الأبواب، جمع لب وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي نبياً كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: 16] أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجِيَادُ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات، وهي التي تتف على ثلاث وطرف حافر الرابعة. والجياد: السراع.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر. والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاحها بعد المغرب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه. ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال.

﴿رُدُّوْهَا عَلَى فُطَيْقٍ مَسَاحٍ بِالسُّورِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿رُدُّوْهَا عَلَى فُطَيْقٍ مَسَاحٍ بِالسُّورِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ثم أمر بها ففعلت. قال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف. وعن ابن عباس جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح ابن جرير فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يعني شيطاناً جلس على كرسيه أربعين يوماً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأهله.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥)

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥) أي لا يصلح أن يسلبنيه بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله. وهذا هو ظاهر من السياق من الآية، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن فلفت علي البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّ بَعْدِي﴾» وكذا رواه مسلم والنسائي.

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦)

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) حيث أراد من البلاد.

﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (٣٧)

﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (٣٧) أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غاصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها.

﴿وَأَٰخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨)

﴿وَأَٰخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨) أي موثقون في الأغلال والأكيال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩)

﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

﴿وَإِن لَّمْ عِندَنَا لُزْلٌ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ (٤٠)

﴿وَإِن لَّمْ عِندَنَا لُزْلٌ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ (٤٠) أي في الدار الآخرة.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا نُّؤَبُّ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿بُنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين.

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها أذهبت جميع ما كان في بطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ وقد كان ﷺ أصيب في جسده حتى لم يبق فيه مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له شيء من الدنيا يستعين به على مرضه، وغير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدم نحواً من ثماني عشرة سنة، وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها - قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان - فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو. روى الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عز وجل، يا أيوب، ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك» انفرد بإخراجه البخاري. ولهذا قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. وقوله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي به صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

﴿وَخُذْ يَدَكَ ضَرْفًا فَأَضْرِبْ بِيَهُ وَلَا تَحْنُثْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَخُذْ يَدَكَ ضَرْفًا فَأَضْرِبْ بِيَهُ وَلَا تَحْنُثْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل

أن يأخذ ضغثاً، وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَاحِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله عليه ومدحه بأنه رجاع منيب.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿

يخبر تعالى عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ ﴿١٥﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة، والبصيرة النافذة ﴿أُولَى الْأَيْدَى﴾ أولى القوة ﴿وَالْأَبْصَرُ﴾ الفقه في الدين.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الْآدَارِ ﴿١١﴾﴾ أي جعلناهم يعملون للآخرة، نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها.

﴿وَاللَّهُمَّ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ

مناب ۴۹

﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (١٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴿أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، أو هو القرآن العظيم. يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب، وهو المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله تعالى.

﴿جَنَّتِ عَذْنٍ مُفْصَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة ﴿مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي مفتحة لهم أبوابها، أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

﴿مُتَكِينٍ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿

﴿سُكِّنَ فِيهَا﴾ قيل: مترعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضروا كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي من أي أنواعه شأؤوا أنتهم به الخدم.

﴿عِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرَفِ أَرْبَ ٥٢﴾

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ أي عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَرْبَابُ﴾ أي متساويات في السن والعمر.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣)

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من صفة الجنة هي التي وعدناها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد بعثتهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٤)

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٤) كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ يُجْدُونَ﴾ [مرد: 108] وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [نفلت: 8] أي غير مقطوع وكقوله: ﴿أَكْلُهَا دَائِبٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: 35].

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّيْفِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ﴾ (٥٥) جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْإِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَدُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (٥٧) وَمَا خَرُّ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ (٥٨) هَذَا فَوَجَّ مُقْنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَجًا يَكُونُ أَنْتُمْ قَدْ مَسَّمُوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْفَكَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء نرى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّيْفِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿لَشَرَّ مَنَابٍ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَيَنْسُ الْإِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَدُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (٥٧)﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما العساق فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَا خَرُّ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ (٥٨)﴾ أي وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها، أو ألوان من العذاب كالزهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المتضادة ﴿هَذَا فَوَجَّ مُقْنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ﴿مُقْنَجٌ﴾ أي داخل ﴿مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَجًا يَكُونُ أَنْتُمْ قَدْ مَسَّمُوهُ لَنَا﴾ أي أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَيَنْسُ الْفَكَارُ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَدْلُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَأَنِيتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: 38] أي لكل منكم عذابه بحسبه. ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَرُ ﴿١٣﴾ ﴿ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ أَنَّهُمْ يَفْتَقِدُونَ رَجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فِي زَعْمِهِمْ ﴿ أَخَذَتْهُمْ سَخِرَاتٌ ﴾ أَي فِي دَارِ الدُّنْيَا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ ﴾ يَسْلُونُ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَحَالِ، يَقُولُونَ: أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ، وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ بَصَرُنَا عَلَيْهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ﴿١٤﴾ إِنْ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَلَعَنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِحَقٍّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْكَفَّارِ بِاللَّهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ، ﴿ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أَي هُوَ وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ.

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَتَصَرَفٌ فِيهِ ﴿ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴾ أَي غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ.

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾ أَي خَبَرٌ عَظِيمٌ، وَشَأْنٌ بَلِيجٌ، وَهُوَ إِسْرَالُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّايَ إِلَيْكُمْ أَوْ الْقُرْآنَ. ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أَي غَافِلُونَ.

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّامِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّامِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ أَي لَوْلَا الْوَحْيُ مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَدْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى؟ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ، وَمُحَاجَّتِهِ رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَرَاهُ قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ ﷺ فَثُوبٌ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ ﷺ: «كَمَا أَنْتُمْ» ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «إِنِّي قَمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قَدَّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ: أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي - أَعَادَهَا ثَلَاثًا - فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنْامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكُفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكُفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَاسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكُرْهِيَاتِ، قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَالَ: سَلِّ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً بِقَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مُفْتُونٍ،

وَأَسْأَلُكَ حَبْكُ، وَحُبُّ مَنْ يَحْبُكَ، وَحُبُّ عَمَلٍ يَقْرِبُنِي إِلَى حَبْكُ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهَا حَقٌّ، فَادْرَسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا» هَذَا حَدِيثُ الْمَنَامِ الْمَشْهُورُ، وَمَنْ جَعَلَهُ يَقْظَةً فَقَدْ غَلَطَ، وَهُوَ فِي السَّنَنِ مِنْ طَرُقٍ. وَلَيْسَ هَذَا الْاِخْتِصَامُ هُوَ الْاِخْتِصَامُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ فَسَّرَ، وَأَمَّا الْاِخْتِصَامُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ فَسَّرَ بَعْدَ هَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: 71].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدًا (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴿

أَعْلَمَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، وَتَقْدِمُ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ مَتَى فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَامْتِثَلَتِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهَا ذَلِكَ سِوَى إِبْلِيسَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا، كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَخَانَهُ طَبْعُهُ وَجَبَلَتْهُ أَحْجُوجٌ مَا كَانَ إِلَيْهِ، فَاسْتَكْبَرَ عَنِ السَّجْدَةِ لِآدَمَ، وَخَاصَمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَادَّعَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَآدَمَ خَلَقَ مِنْ طِينٍ، وَالنَّارُ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فِي زَعْمِهِ، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ وَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ، وَطَرَدَهُ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ، وَمَحَلَّ أَنْسَهُ، وَحَضْرَةَ قَدْسِهِ، وَسَمَاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَأُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَدْحُورًا إِلَى الْأَرْضِ فَسَأَلَ اللَّهُ النَّظَرَ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، فَلَمَّا أَمِنَ الْهَلَاكُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَقَالَ:

﴿قَالَ فِعْرَ رَبِّكَ لَا غُورِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَا مُلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴿فِعْرَ رَبِّكَ لَا غُورِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٧) ﴿وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَنُونَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾﴾ [الإسراء: 65] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٨) لَا مُلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٩) ﴿أَيُّ أَنَا الْحَقُّ، وَالْحَقُّ أَقُولُ.﴾

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٩٠) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩١) وَلَعَلَّنَا نَبَأُ بَعْدَ حِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصيح أجراً تعطونيهِ من

عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أدبته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، وعن ابن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإنه عز وجل قال لنبيكم ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨١) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) يعني القرآن، فإنه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي عن قريب، وقيل: يوم القيامة.

تفسير سُورَةُ الزُّمَرِ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، ﴿الْعَزِيزِ﴾ أي المنيع الجنب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِذْ لِمَنْ خَلَصَ لَهُ الْدِينُ﴾ (٢)

﴿فَاغْبِذْ لِمَنْ خَلَصَ لَهُ الْدِينُ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد، ولهذا قال:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣)

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، أو الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوب بهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.